مجلة المختار للعلوم الإنسانية 38 (1): 237-260، 2020

Research Article
Open Access

دور الكنيسة الأرثوذكسية في الحياة الدينية والحياة السياسية شرق أوروبا العصور الوسطى

صلاح الأمين عبدالله محمد[1]*
قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم، جامعة بنغازي – المرج

عجائب أبوبكر سليمان سالم[2]*
كلية السياحة والاثار، جامعة عمر المختار – سوسه

Doi: https://doi.org/10.54172/tnbfgr21

المستخلص: هذه الدراسة كانت عن دور الكنيسة الأرثوذكسية في الحياة الدينية والحياة السياسية شرق أوروبا العصور الوسطى. وهدف هذه الدراسة هو الكشف عن دور الكنيسة الأرثوذكسية في الحياة الدينية والحياة السياسية شرق أوروبا العصور الوسطى. بجانب معرفة أثرها الديني على شرق أوروبا العصور الوسطى. وايضاً كيف كان لها الأثر الكبير على الحياة السياسية في شرق أوروبا العصور الوسطى. وذلك من خلال السرد والتحليل والمقارنة بين المصادر والمراجع والدوريات التي درست تاريخ الكنيسة في العصور الوسطى. ومن خلال هذه الدراسة اشارات النتائج بان الكنيسة الأرثوذكسية لعب دورا كبيرا في الحياة الدينية والحياة السياسية شرق أوروبا العصور الوسطى. وعزت الدراسة اسباب دور الكنيسة الأرثوذكسية في الحياة الدينية والحياة السياسية شرق أوروبا العصور الوسطى الى، تنافس الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية على زعامة العالم المسيحي في العصور الوسطى. والى الصراع بين المذاهب المسيحية (الارثوذكس والكاثوليك).

الكلمات المفتاحية: الكنيسة الأرثوذكسية، الحياة الدينية، الحياة السياسية، القسطنطينية، شرق أوروبا العصور الوسطى

The role of the Orthodox Church in the religious and political life of medieval Eastern Europe

Salah Al-Amin Abdullah Muhammad
Department of History, College of Arts and Sciences, University of Benghazi - Al-Marj
Ajayib Abu Bakr Suleiman Salem
Faculty of Tourism and Archeology, Omar Al-Mukhtar University - Sousse

Abstract: This study is about the role of the Orthodox Church in the religious and political life of medieval Eastern Europe. The aim of this study is to reveal the role of the Orthodox Church in the religious and political life. Besides knowing its religious impact on medieval Eastern Europe. Also, how it had a great impact on political life in medieval Eastern Europe. Through the narrative, analysis and comparison of sources, references and periodicals that have studied the history of the church. Through this study, the results indicate that the Orthodox Church played a major role in the religious and political life of medieval Eastern Europe. The study attributed the reasons for the role of the Orthodox Church in religious and political life in Eastern Europe in the Middle Ages, to the competition of Orthodox and Catholic Churches for the leadership of the Christian world in the Middle Ages. To the conflict between Christian doctrines (Orthodox and Catholic).

Keywords: Orthodox Church, Religious Life, Political Life, Constantinople, Eastern Europe Middle Ages

The Author(s) 2023. This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/) , which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium ,provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسُولُهُ ﷺ . أمَّا بَعْدُ:

فقد يثور التساؤل عن ماهية الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، وما هي معتقدات المسيحيين الأرثوذكس؟

إن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ليست كنيسة واحدة بل هي عائلة تضم ثلاثة عشر جسداً مستقلاً، ويتم تصنيفها بحسب البلاد التي توجد بها مثلا: (الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية؛ الكنيسة الأرثوذكسية الروسية) إنها متحدة في مفهوم المقدسات والمعتقد والطقوس وإدارة الكنيسة، ولكن تقوم كل منها بتسيير شؤونها بصورة مستقلة.

يُدعى رأس كل كنيسة أرثوذكسية "بطريركاً" أو "مطراناً". يعتبر بطريرك القسطنطينية (إسطنبول، تركيا) هو البطريريك المسكوني أو العالمي، وهذا المنصب هو ما يماثل منصب بابا روما في الكنيسة الكاثوليكية. على عكس بابا روما المعروف بأنه Vicarius Filius Dei أي أسقف ابن الله، فإن بطريريك القسطنطينية يعرف بأنه Primus Inter Pares أي الأول بين نظراء متساويين. فله إكرام خاص، ولكن ليس له السلطان للتدخل في المجامع الأرثوذكسية الاثني عشر الأخرى.

تزعم الكنيسة الأرثوذكسية أنها كنيسة المسيح الوحيدة الحقيقية وتسعى لتتبع أصولها إلى الرسل الأوائل من خلال سلسلة متصلة من الخلافة الرسولية، يجادل المفكرون الأرثوذكس في الحالة الروحية للكاثوليك والبروتستانت وما زال البعض منهم يعتبرهم مهرطقين، ولكن يتفق الأرثوذكس مع الكاثوليك والبروتستانت في الإيمان بالثالوث المقدس، وبأن الكتاب المقدس هو كلمة

الله، وأن يسوع هو ابن الله، والكثير من التعاليم الكتابية الأخرى. ولكنهم يتفقون بصورة أكبر مع الكاثوليك عنه مع البروتستانت في الكثير من المعتقدات.

للأسف فإن عقيدة التبرير بالإيمان غائبة من تاريخ لاهوت الكنيسة الأرثوذكسية، وبدلا من هذا فإن الأرثوذكسية تشدد على التشبه بالمسيح، أي العملية التدريجية التي يصبح بها المسيحيين مشابهين للمسيح أكثر وأكثر، وما يعجز عن فهمه الكثيرون ممن يتبعون التقليد الأرثوذكسي هو أن التشبه بالمسيح هو نتيجة تالية للخلاص وليست من متطلبات أو شروط الحصول على الخلاص، وتشمل المعتقدات الأرثوذكسية الأخرى التي تتعارض مع الكتاب المقدس ما يلي:

- السلطة المتساوية للتقليد الكنسي والكلمة المقدسة.
- عدم تشجيع الأفراد على تفسير الكتاب المقدس بمنحى عن التقليد الكنسي.
- أبدية عذرية مريم العذراء.
- الصلاة من أجل الأموات.
- معمودية الأطفال دون الإشارة إلى المسؤولية الفردية والإيمان.
- إمكانية الحصول على الخلاص بعد الموت.
- إمكانية فقدان الخلاص.

بينما تضم الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية بعض من أعظم أصوات الكنيسة، وبينما توجد العديد من التقاليد الكنسية الأرثوذكسية التي تعبر عن علاقة الخلاص بيسوع المسيح، إلا أن الكنيسة الأرثوذكسية نفسها لا تقدم رسالة واضحة متوافقة مع إنجيل يسوع المسيح في الكتاب المقدس.

إن دعوة المصلحين إلى "الكتاب المقدس فقط، والإيمان فقط، والنعمة فقط، والمسيح فقط" مفقودة من الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، وهذا كنز غال بقدر لا يمكن الاستغناء عنه.

ولد السيد المسيح- عليه السلام- في بيت لحم في فلسطين، في عهد الإمبراطور أوغسطس, يدعو الناس لعبادة الله وتوحيده وترك عبادة العباد, فلم ينته القرن الأول الميلادي, حتى انتشرت الديانة المسيحية في كافة أنحاء الإمبراطورية الرومانية, عن طريق التجارة في شرق البحر المتوسط, وساعدها على سرعة الانتشار يهود الدياسبورا، الذين كانوا يعيشون في المدن الكبيرة في البحر المتوسط, في الوقت الذي كان فيه الرومان يشعرون بنوع من الفراغ والجذب الروحي, فقد سئم الرومان من العبادات القائمة من بينها عبادة الإمبراطور واعتبروها من الأمور الشكلية, مما دفع المتعلمين منهم إلى الاستخفاف بالعقائد الدينية السائدة.

وبعد أن انتشرت المسيحية ووصلت إلى روما نفسها ومخالفة العقائد والديانات القائمة في الإمبراطورية وعدم اكتراث المسيحيون بالطقوس القائمة عرضهم ذلك إلى نقمة الإمبراطور نيرون (37-64م) واضطهاده لهم؛ حيث قام بتقديم المسيحيين كطعام للنار العظيمة التي أشعلها في روما سنة 64م, وقد شارك في هذا الاضطهاد مجموعة من الأباطرة ومن بينهم تراجان (27-98م) وهادريان (117-138م) وأنطونيوس (111-130م) وغيرهم, إلا إن هذا الاضطهاد جاء بنتائج عكسية حيث زاد إصرار وتمسك المسيحيون بعقيدتهم. وهكذا لم يحل القرن الثالث الميلادي إلا وكانت المسيحية قد أصبحت قوة خطيرة بسبب ازدياد أتباعها, مما دفع الإمبراطور دقلديانوس (284-305م) بالتطرف في قمعها في أوائل القرن الرابع الميلادي؛ لاسيما بعد ازدياد نفوذ المسيحيين بين رجال الجيش الذين يهددون بالقضاء على ولاء الجند للإمبراطورية.

قام الإمبراطور دقلديانوس بإصدار عدة مراسيم يمنع فيها صلاة المسيحيين، وأمر بهدم كنائسهم وإحراق كتبهم وحبس قساوستهم وطردهم من الوظائف الحكومية, مما جعل المسيحيون يطلقون على تلك الفترة بعصر الاضطهاد الأعظم أو عصر الشهداء.

لقد خرجت المسيحية من تلك المعارك منتصرة لاسيما بعد اعتراف الإمبراطور قسطنطين (306-337م) في مرسوم ميلان 313م, بالسماح بممارسة الديانة المسيحية داخل الإمبراطورية البيزنطية, كما تعهد بحماية المسيحيين وممتلكاتهم, ولكن ما لبثت الديانة المسيحية في الاستقرار حتى ظهر الخلاف العقائدي والمذهبي بين أتباعها, وأخص بالذكر الخلاف الذي نشب بين أساقفة الإسكندرية حول طبيعة السيد المسيح, بين (أريوس، وأثناسيوس) حيث تطور الخلاف إلى أن خرج من أحضان كنيسة الإسكندرية ووصل إلى روما مما دفع الإمبراطور قسطنطين للدعوة لعقد مجمع

مسكوني أول؛ وهو مجمع نيقية 325م، لمناقشة الخلاف القائم، فقد أدان المجمع بدعة أريوس، وقاموا بنفيه وإصدار عشرون قانوناً، كما قرر فيه توقيت عيد الفصح ودستور الإيمان, ولقد أدى هذا الخلاف إلى تعدد المذاهب والأتباع حيث سمي أتباع أريوس بالأريوسيين، وأتباع أثناسيوس بالأثناسيوسيين، واستمر الجدال والخلاف حول طبيعة السيد المسيح عليه السلام حيث أيدت الكنيسة الأرثوذكسية المذهب الأريوسي في الشرق (أي القسطنطينية) أما الكنيسة الكاثوليكية فقد أيدت المذهب الأثناسيوسي في الغرب (أي روما).

تكمن مشكلة دراسة هذا الموضوع في التعرف على الدور الذي قامت به الكنيسة الأرثوذكسية في الحياة الدينية والسياسية شرق أوروبا العصور الوسطى.

وتكمن أهمية الدراسة في توضيح ما يلي:

1. التعريف بالكنيسة الأرثوذكسية في الشرق الأوربي في العصور الوسطى.
2. الدور الذي قامت به الكنيسة الأرثوذكسية من الناحية الدينية.
3. هل نجحت الكنيسة الأرثوذكسية من الناحية السياسية في شرق أوروبا العصور الوسطى؟

كما تهدف الدراسة الى معرفة الدور الديني والسياسي الذي قامت به الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية, ومدى تأثيرها في شرق أوروبا العصور الوسطى.

أما المنهج المتبع في الدراسة هو المنهج السردي التاريخي، مع التحليل والمقارنة، من اجل الوقوف على الدور الذي قامت به الكنيسة في أوروبا العصور الوسطى.

وأما عن الدراسات السابقة فقد تناولنا في هذه الدراسة كتاب الأب متى المسكين، الذي خصصه للحديث عن اثناسيوس الرسول البابا العشرون (296-373م) حيث تناول فيه سيرته ودفاعه عن الإيمان ضد الأريوسيين, فتم الاعتماد عليه في العنصر الأول من الورقة وهو أثر الكنيسة الأرثوذكسية في الحياة الدينية.

كذلك كتاب للدكتور عادل درويش، الكنيسة أسرارها وطقوسها، وهي رسالة دكتورة أجيزت من جامعة الأزهر، تمت الاستفادة منها في تعريف الكنيسة الأرثوذكسية وكذلك أمدتنا بمعلومات داعمة للدراسة هذا الموضوع.

وكتاب الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، الذي تحدث عن المسيحية من بدايتها، واضطهاد الأباطرة لها، وعن ظهور المذاهب، وانعقاد المجامع، والتنافس بين الكنائس الشرقية والغربية.

إلا أننا لم تقع بين أيدينا دراسة قائمة بذاتها عن دور الكنيسة الأرثوذكسية في الحياة الدينية والحياة السياسية في شرق أوروبا العصور الوسطى، وبالتالي قسمنا الدراسة إلى ثلاثة مباحث بالإضافة إلى الخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع.

سنتناول دور الكنيسة الأرثوذكسية في الحياة الدينية في شرق أوروبا العصور الوسطى، ثم سنتحدث عن دور الكنيسة في الحياة السياسية في شرق أوروبا العصور الوسطي، كما سنتطرق ايضاً في عن أهم النتائج ومناقشتها.

ولقد تم تحديد القرن الرابع الميلادي إلى القرن الخامس عشر الميلادي, كمجال زمني للدراسة وهي منذ اعتراف الإمبراطور قسطنطين بالمسيحية إلى سقوطها على يد الأتراك العثمانيين 1453م. أما المجال المكاني فقد كان الجانب الشرقي من الإمبراطورية البيزنطية, وذلك لمعرفة الدور الذي قامت به الكنائس الشرقية لفرض سلطتها ونفوذها على الإمبراطورية بشطريها الشرقي والغربي, في دراسة موضوع (دور الكنيسة الأرثوذكسية في الحياة الدينية والحياة السياسية شرق أوروبا العصور الوسطى).

المناقشة

اولاً: دور الكنيسة الأرثوذكسية في الحياة الدينية في شرق أوروبا العصور الوسطى:

المذهب الأرثوذكسي وهو الدين القويم, لأنه مأخوذ من كلمة يونانية معناها الحق القويم أو المذهب المستقيم, لذلك فقد عرفت الكنيسة الأرثوذكسية بأنها الكنيسة القاطعة لكلمة الحق بالاستقامة المقدسة, كما عُرفت أيضاً بالكنيسة الشرقية أو اليونانية؛ لأن أكثر أتباعها من البيزنطيين على

العموم كروسيا، والبلقان، واليونان، وكان مقرها الأصلي بالقسطنطينية (درويش، 2012: ص155).

كانت بداية ظهور هذه الكنيسة بعد مجمع القسطنطينية عام 381م, الذي قرر فيه أن الروح القدس انبثقت من الأب، ورفض قرارات مجمع نيقية الذي سبق انعقاده, والذي تقرر فيه أن الروح القدس منبثقه من الأب والأبن، وعقب ذلك المجمع أدى إلى انشقاق بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما, مما جعل اليونانية تطلق على نفسها كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية وهي لا تعترف لبابا روما بالسيادة* (العريني, 1965: ص53).

لقد كانت الكنيسة الأرثوذكسية تقوم على الاعتقاد بأن الله واحد في ثلاث حالات: هو الأب، والابن، والروح القدس، وأن هذه الأقانيم الإلهية هم طبيعة واحدة، وجوهر واحد, وقد دعا الأقنوم الأول أباً ووالداً, ودعا الأقنوم الثاني ابناً أو مولوداً, كذلك فإن الكنيسة الأرثوذكسية تعتقد بأن الروح القدس منبثق من الأب فقط، على نحو ما جاء في قرار مجمع القسطنطينية الأول عام 381م, ويعتقد أن للمسيح بعد التجسد طبيعتين إلهية وإنسانية اتحدتا فيه بلا امتزاج ولا انفصال وألفتا أقنوماً واحداً هو يسوع المسيح (عاشور، 1972: ص39).

لقد تميز رجال الدين بامتيازات كثيرة فكان لهم الحق في الحصول على الهبات والإعفاء من الضرائب, فضلاً عن قيام الأساقفة بالفصل في المنازعات التي تنشأ بين المسيحيين, ثم أصبح نفوذ الأساقفة يزداد يوماً بعد يوم في أقاليمهم بفضل مكانتهم الدينية، وكذلك بفضل الهبات والصدقات من جهة أخرى، وبالتالي فقد ازدادت ثروة الكنيسة حتى أنها امتلكت الأراضي والضياع الواسعة التي قام العبيد والأقنان بفلاحتها, فضلاً عن الهبات والهدايا التي قدمت من الأباطرة والتبرعات التي قدمها الأهالي (عاشور، 1972: ص46-47).

---

* مجمع القسطنطينية: هو مجمع مسكوني ديني عقد في مدينة القسطنطينية عام 381م والذي تقرر فيه أحقية أسقف القسطنطينية يلي بابا روما في المكانة في الكنيسة المسيحية وبالتالي جعل هذا القرار القسطنطينية على قدم المساواة مع روما. انظر: السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية 323-1081م, دار النهضة العربية, القاهرة, 1965، ص53.

أما عن الوضع بعد تأسيس القسطنطينية, هو أن أسقف القسطنطينية مجرد أسقف مساعد لرئيس أساقفة روما, وهذا الوضع لم يعد يناسب العاصمة الجديدة, التي يتحتم على أسقفها التمتع بمقام أكثر علواً يتناسب مع وضعها الجديد وعلى هذا عقد المجمع المسكوني الثاني الذي أقر مرتبة القسطنطينية بعد أسقف روما مباشرةً (Vasiliev, 1961: pp. 450-452) إلا أن هذا القرار لم يكن ليمر مرور الكرام فلم ترضْ روما بهذه المكانة لأسقف القسطنطينية, مما جعل البابا داماسيوس الأول (366–384م) يدعو لعقد مجمع محلي في روما، وتم الاحتجاج بشدة على جعل أسقف القسطنطينية بالمرتبة الثانية (زيتون، 1980: ص321–322).

لم يكن بإمكان أسقف القسطنطينية التراجع نتيجة غضب واستياء بابا روما، لذلك فقد كان على بطريرك القسطنطينية أن يشق طريقه خلال صراع طويل؛ ليس ضد بطريرك روما فحسب، بل أيضا ضد بطريرك الإسكندرية الذي غضب من تقديم أسقف القسطنطينية عليه, وقد ازداد الأمر سوء عندما عُقد المجمع المسكوني الرابع في خلقيدونية 451م, حيث قرر الآباء المجتمعون بالأغلبية بمنح أسقف القسطنطينية الامتيازات نفسها التي يتمتع بها أسقف روما، كما منح الآباء لقب بطريرك إلى أساقفة الكنائس الخمس روما, القسطنطينية, الإسكندرية, أنطاكية وأورشليم (بيت المقدس) فنتج عن ذلك رفض من جانب البابوية التي اعتبرتها إهانة للنظرية البطرسية (زيتون، 1980: ص324–325).

وخلال القرن الرابع الميلادي كانت العلمانية قد سيطرت على الكنيسة, وكان ذلك سببٌ في تطورها ونموها فكان كل واحد مهتماً بالفكر اللاهوتي, وكانت الهرطقة الإريوسية, هي موضوع الساعة، وكان الناس على اختلاف مراكزهم يتابعون الصراع داخل المجامع, كما كان الأباطرة يعقدون المجامع الدينية, كما يعقدها كبار رجال البلاط، يشاركون فيها مشاركة فعالة, وكان العلمانيون المثقفون مستشارين للاهوتيين، وكذلك فقد أسهم العلمانيون في الجهد التبشيري للكنيسة إسهاماً عظيماً, ولقد كانت الإمبراطورية البيزنطية في القرن الخامس الميلادي تعد الزندقة* (جاويد، 1997: ص131) جريمة ضد الإمبراطورية برغم من كون تلك الوظيفة من اختصاص الكنيسة, إلا

* الزندقة: تعني نبذ أي قانون يصدر على مجالس العامة للكنيسة. انظر: ستيفن رنسيمان، الحضارة البيزنطية, ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد, ط2, الهيئة المصرية العامة للكتاب, القاهرة, 1997م، ص131.

أن سيطرة الإمبراطورية على الكنيسة واعتبارها روحاً وجسداً أعطى الأباطرة حق اتخاذ قرارات الكنيسة.

لقد كان البطريرك نفسه تحت سيطرة الإمبراطور, وكان ينتخب بشكل إسمي بواسطة هيئة الأساقفة وكان الإمبراطور هو الذي يعينه في الواقع بنفسه, كما كان من صلاحياته أن يعزله عن طريق حشد مجمع خاضع لإدارته, فكان الإمبراطور هو إمبراطور الدولة وبطريرك الكنيسة* (جاويد، 1997: ص126–127).

لقد سلمت الكنيسة في الشرق زمام أمورها للأباطرة الذين ازداد تدخلهم في شؤون الكنيسة وذلك بين القرنين السادس والثامن, وبذلك أصبح من الصعب إيقاف تدخل الأباطرة في الشؤون الدينية حتى أن الإمبراطور أصبح بمثابة البابا للكنيسة (Fruch, 2005: p. 613) أي جامعاً في يده السلطتين الدينية والسياسية وكان أول إمبراطور وضع هذا الأساس هو الإمبراطور قسطنطين منذ اعترافه بالمسيحية، وإنشائه مدينة القسطنطينية, كما أنه سن قانوناً صار عليه بقيت الأباطرة البيزنطيين وهو الدعوة لعقد المجامع المسكونية الدينية لبحث مختلف المشاكل المتعلقة بالكنيسة والعقيدة المسيحية، وقد أصبح الإمبراطور مشرفاً على المناقشات الدينية على جميع كنائس الشرق التي تضم في طياتها أهم المدن التي صارت مركزاً لكراسي دينية كبرى مثل الإسكندرية وبيت المقدس وأنطاكية وقيصرية (عاشور، 1972: ص48–49).

ويستطيع الباحث في تاريخ الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية المذهب, أن يعي تماماً أن الشرق هو منبع النزاع والجدال الديني العقائدي، وذلك بحكم أن اليونان بلاد ذات الحضارة واللغة والثقافة الإغريقية كانت تحت الفكر الهليني ذات الطابع الفلسفي فكانوا كثيري التأمل والجدال فيما يختص بالعقيدة, فبذلك جمعت الكنيسة في ظلها أعظم العلماء والمفكرين والفلاسفة كما يقول الكاهن جريجورى.

لقد لعب الشرقيون سواء كانوا علمانيين أو أناس عاديين دوراً ملموساً في الشؤون الدينية وبالتالي وجود رأى عام واضح إزاء المسائل اللاهوتية في الشرق, (زيتون، 1980: ص325) فإن

امتدت الكنائس في كافة البقعة الشرقية وظهرت اكبر كنيستين في الشرق هما: "كنيسة الإسكندرية وكنيسة أنطاكية" رغم نشوب خلاف بين الكنيستين؛ بسبب عدم فهم المفردات والكلمات فيما بينهم وتفسيرها تفسيراً خاطئاً, إلا أنها اجتمعت للتصدي لهرطقة أريوس في مجمع نيقية، وبرغم من فشل الكنيسة في مجمع نيقية لمواجهة الإريوسية حيث نجم عن المجمع انشقاق بدائي, حيث إن اتباع أريوس لم يهدؤوا فكان التحدي على الكنيسة أعظم مما كان قبل المجمع، ومنذ ذلك الوقت انشغل العالم المسيحي بعلاقة الناسوت باللاهوت (الاب متى، بدون تاريخ: ص741).

فبعد توحد الكنيسة في مواجهة أريوس والأريوسيين فقد توحدت الكنيسة أيضاً لمحاربة الهرطقة الجديدة التي دعا إليها ابوليناريوس،* لقد تصدت الكنيسة لهرطقة أريوس ابوليناريوس وأدانت مجامع عديدة هرطقة ابوليناريوس 337م في روما 378م، وفي الإسكندرية 379م، وفي أنطاكية كما أدين في مجمع القسطنطينية الاول 381م (نجيب، 2012: ص171).

وفي القرن الرابع ظهر المذهب النسطوري* في أنطاكية, يشير إلى أن للسيد المسيح عليه السلام طبيعتين (الإلهية والبشرية) لم تتحد اتحاداً كاملاً في المسيح, ثم تطور المذهب لمحاولة أربابه البرهنة على أن للمسيح طبيعة بشرية مكتملة, ونهى هذا المذهب عن تسمية العذراء بوالدة الإله واستبدلها بوالدة المسيح لأنها لم تلد ألها بل أنساناً، فمنذ تولي نسطورس بطريرك القسطنطينية وكان من أشد المتحيزين للمذهب النسطوري حتى أنه قام بفرض مذهبه على الكنيسة، حيث أنكر نسطورس الطبيعة الإلهية في المسيح وأن رجال الكنيسة الإسكندرية اغفلوا الطبيعة البشرية في المسيح, وترتب على ذلك ظهور مذهب الطبيعة الواحدة في المسيح إي الطبيعة الإلهية, وهو المذهب المونوفيزتي.

تم عقد مجمع لمناقشه هذه البدعة الجديدة, وقد حضره كل من بطريرك روما والقسطنطينية, وفي هذا المجمع هزم أصحاب هذه النظرية, ولكنه خلف ورائه تراثاً من المشاكل,

---

* ابوليناريوس: ولد في عام 310م من أصل مصري تربى في عائلة مثقفة كان يدرس علم الخطابة وانتقل إلى الاودوكية وأصبح كاهنا لمدينة الاودوكية (اللاذقية). انظر: جاد الله نجيب، تاريخ الكنيسة الغائب صفحات من تاريخ الكنيسة في القرنين الرابع والخامس للميلاد, دار الثقافة العربية، القاهرة, 2012، ص168.

* المذهب النسطوري: هو مذهب مسيحي رافض لمجمع افسس المعقود عام 431م مؤسسه النسطورس بطريرك القسطنطينية (428–431م) الذي يعتقد بوجود طبيعتين في السيد المسيح عليه السلام منفصلتين غير متحدتين انطلاقا من تعليم المدرسة الأنطاكية التي ينتمي إليها. انظر: العريني، الدولة البيزنطية، ص50.

حيث بقيت كنيسة الإسكندرية تواصل دعم المونوفيزتية, وفي عهد زينون (474-491م) حاول العمل على مصالحة المونوفيزتية والأرثوذكسية, ولكنه فشل مما زاد العداء مع روما, حيث أنه كان متحيزا للمونوفيزتية (Normaan, 1984: p. 3).

أما القرن السادس الميلادي أي في فترة حكم الإمبراطور جستنيان (527-565م) فقد عمل على تسوية الفروق بين الفروع الخلقيدونية للكنيسة، وقد سعى نحو تأسيس وسط يمكن أن يعيد التأكيد لكيرلس للإقرار الخلقيدوني دون الإساءة إلى البيزنطيين الأرثوذكس.

لقد نجح إلى حد ما إلا انه لم تنجح هذه التسوية مع كنيسة الإسكندرية، فقد طبق جستنيان منطق أرسطو نحو مشكلة الطبيعة الواحدة طبيعتين، فتمسك بأن للمسيح طبيعة بشرية واحدة، لذلك فقد كانت الكنائس الشرقية الأرثوذكسية تحيي فقط ذكرى ثلاث المجامع المسكونية الأولى نيقية 325م والقسطنطينية الاول 381م, افسس 431م, أما خلقيدونية 451م فتعترف بسلطة سبعة مجامع مسكونية نيقية 325م, والقسطنطينية 381م, وافسس 431م, وخلقيدونية 451م, والقسطنطينية الثاني 553م، والقسطنطينية الثالث, ونيقية الثاني 787م, برغم أن زوجته ثيودورا كانت تدعم المونوفيزتيين في مصر, والذي كان يرى في نفسه أنه جمعا في يده السلطة الدينية والدنيوية أي انه أسقف وإمبراطور (Vryonis, 1967: p. 153).

أما القرن السابع الميلادي زمن الإمبراطور هرقل (610-641م) فقد ابتكر نظرية لاهوتية جديدة كان يرجو بمقتضاها أن يجذب أصحاب مبدأ الطبيعة الواحدة، وتسمى: "النظرية المشيئة الواحدة" بحيث تجمع في السيد المسيح عليه السلام الطبيعتين الإنسانية والإلهية, وقد لقيت تأييداً في روما وأنطاكية، لكنها رفضت فورا في الإسكندرية 638م، رغم محاولة الإمبراطور هرقل أن يجبر الكنائس على قبول مبدأ عقيدة الإرادة الواحدة (المونوثلية) مما أدى إلى غضب وسخط الكنيسة الإسكندرية, بالرغم من أنه جعل نهاية لهذا الصراع إلا أن جهوده انتهت بالفتوحات الإسلامية لسوريا ومصر، الذي رأى سكانها في الفتوحات خلاص من السيطرة البيزنطية (لوريمر، بدون تاريخ: ص247).

لقد كان القرن التاسع الميلادي نقطة مهمة في التاريخ البيزنطي حيث تهيأت الأجواء إلى حدوث الانشقاق الأعظم الذي حدث في عام 1054م, عندما حدث نزاع بين بطريركين في القسطنطينية، وهم: "إجناشيوس ومنافسه العنيد فوتيوس" وذلك في عهد الإمبراطور ميخائيل الثالث

(842–867م) حيث قامت الامبراطورة الأم ثيودورا بتعيين إجناشيوس بطريرك للقسطنطينية فأول ما قام به هو حرمان معارضيه ومن بينهم فوتيوس, ثم طردهم من مناصبهم الأسقفية غير أن المؤامرات والفتن أطاحت بالبطريرك إجناشيوس عام 857م, حيث وجهة تهمة له وقام الإمبراطور ميخائيل الثالث بنفيه (Warren, 1997: p. 819) وتم اختيار فوتيوس ليشغل الكرسي البطريرك القسطنطينية.

لقد قام فوتيوس بمجاملة البابوية وإخبارها بعزل إجناشيوس لغرض التقرب لها، إلا أنها أتت بنتائج عكسية؛ حيث أراد البابا التدخل في شئون الكنيسة الداخلية بحيث أرسل رسل من روما دعوا لعقد مجمع في القسطنطينية 861م، وذلك لإدانة إجناشيوس الذي رفض الاستجواب وصاح معلناً إن الرسل من البابوية لاحق لهم في التدخل في شؤون الكنيسة الأرثوذكسية، ومن هنا نستطيع القول إن الأمور قد تفاقمت حدة بين كنيسة روما بزعامة البابوية، وكنيسة القسطنطينية وبين الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث، وكانت تلك من بين الأسباب التي يأتي ذكرها لاحقاً في حدوث ما يعرف بقطيعة فوتيوس (عبيد، 1970: ص8–12).

لقد استمر الصراع بين بطريرك القسطنطينية وتدخل البابوية فيها، وانتهزت فرصة إعادة النظرية البطرسية من جديد معطياً حق الكراسي لروما والإسكندرية وانطاكية وبيت المقدس متجاهلا كنيسة القسطنطينية, بحيث أن الرسائل المتبادلة بين الإمبراطور ميخائيل الثالث والبابا نيقولا الأول (858–867م) لم تكن سبباً في غضب الثاني، إنما كان سببه غيرة البابوية وحقدها للنجاح الهائل الذي حققته البعثات التبشيرية بين الشعوب السلافية بالديانة المسيحية الأرثوذكسية تأييدها للقوات العسكرية البيزنطية في بلاد البلغار، غير أن ملك البلغار طالب بتعيين بطريرك بلغاري لمملكته فتجاهل فوتيوس طلبه, مما أضطر الملك للدخول في مفاوضات مع البابوية لتحقيق ذلك، فاستغل البابا ذلك وأرسل أسقفين للتبشير وتصحيح العقائد التي سبق للإمبراطورية البيزنطية إذاعتها بين الناس في بلغاريا، حيث قام الملك البلغاري بطرد الأساقفة البيزنطيين والرهبان من مملكته وأقام مكانهم وفد البابوية (عبيد، 1970: ص13).

وفي عام 867م اغتيل الإمبراطور ميخائيل الثالث، وجلس على العرش الإمبراطور المقدوني باسيل الأول (867–886م) فقام بخلع فوتيوس وتعيين إجناشيوس الذي عقد مجمع رحبت به البابوية لاعتقادها أنه سوف يكون من مؤيديها، وأصدر قراراً بحرمان فوتيوس ونفيه، وأقر

المجمع أيضا رفضه التام لادعاءات روما في الإمارة على الكنيسة العالمية, وأكد إن البطريرك الخمسة لروما والقسطنطينية والإسكندرية وانطاكية وبيت المقدس متساوية في الرتب الكنسية دون تمييز, وفي ذلك الوقت وصلت للقسطنطينية السفارة البلغارية فأعلن الإمبراطور إن بلغاريا مُلك الإمبراطورية البيزنطية, مما أغضب روما وتم طرد رجال الدين الكاثوليك من بلغاريا، وإحلال محلهم قساوسة البيزنطيين.

توفي إجناشيوس عام 877م، وتم تعيين فوتيوس بطريرك على كرسي كنيسة أيا صوفيا, وعقد مجلساً في القسطنطينية عام (879–880م) شارك فيه مندوبون عن بطريرك الإسكندرية وانطاكية، وبيت المقدس، ولهذا المجلس أهمية حيث أنه أجبر الرسل البابويين على الاستماع دون معارضة لنص قانون الإيمان النقي، كما أعلن أن البابا بطريرك كسائر البطاركة الأربعة الآخرين، مما أحدث قطيعه بين فوتيوس وروما، أي بين الكنيسة الشرقية القسطنطينية الأرثوذكسية والكنيسة الغربية روما الكاثوليكية (عبيد، 1970: ص16).

ثانياً: دور الكنيسة الأرثوذكسية في الحياة السياسية في شرق أوروبا العصور الوسطى:

لقد لقب الأباطرة البيزنطيين أنفسهم بلقب الحبر الأعظم, فلم يعد أحدٌ يعبد الإمبراطور كما في السابق, إلا أن فترة حكم الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (379–395م) فقد كان الحاكم وقصره مقدسين، وكانت القسطنطينية تدعى المدينة المقدسة, فقد كان على الناس أن يمسوا الثوب الأرجواني المقدس، وكانوا يُدعون للسجود أمام الصور المقدسة للأباطرة السابقين في قاعات القصر، وكان إهمال القوانين الإلهية ما هو إلا عصيان ويعتبر تدنيساً للمقدسات، ومن يخدع الإمبراطور فانه يخدع الله (رنسيمان، 1997: ص138).

قامت الكنيسة القسطنطينية من البداية على أساس التعاون التام مع الدولة, وغالبا ما أخذ بطريرك القسطنطينية الأوامر من الإمبراطور المقدس، بل إن قرارات المجامع العامة تطلبت موافقة الإمبراطور على انعقادها، وكان الإمبراطور يترأسها ويستمع لمناقشتها، وبعد أن تقر القرارات كانت تعرض على الإمبراطور لتعديل أو إلغاء بعض منها، وأحيانا يأخذ هو القرار ويطبق في المجمع, كما كان من حقه تنفيذ قوانين المجامع المسكونية ولو تطلب ذلك استخدام القوة واتخاذ الإجراءات

كالنفي أو السجن أو خلع أعداء الله والكنيسة, غير أن الأباطرة ما كانت لهم الجرأة على اتخاذ قراراً سياسياً كان أو دينياً دون مشاورة البطريرك, ومن ثم كانت المنازعات الدينية والعقائدية من الأمور التي تحظى باهتمامات السلطة الإمبراطورية, وأعتبر الأباطرة أن الهرطقة لا تهدد كيان الكنيسة فقط, بل تهدد كيان الإمبراطورية, حيث عملوا علي تحمل مسئولية تحقيق هذه الوحدة والإبقاء عليها, فحاول العديد من الأباطرة استنباط مذهب يعمل على إرضاء جميع الأطراف, وعلى سبيل المثال ما فعله الإمبراطور هرقل عندما استحدث مذهب المونوثلية, بيد أنهم لم يتمكنوا من إرضاء أحد (هلستر، 1988: ص7).

لذلك نجد الكنيسة في الشرق تحت خدمة الأباطرة البيزنطيين, حيث تولوا الدعوة لعقد المجامع المسكونية تارةً, ومخالفتها تارةً أخرى، وهذا ما فعله الإمبراطور قسطنطين عندما خالف مجمع نيقية 325م، وأعاد الاسقف أريوس للقسطنطينية بعد القرار بنفيه ونفي أثناسيوس، كذلك ما قام به الإمبراطور ثيودوسيوس الأول والدعوة لعقد مجمع مسكوني ثاني في القسطنطينية عام 381م (Charanis, 1953: p. 422) والمجمع المسكوني الثالث لمناقشة بدعة نسطورس وتحويله الكنيسة إلى كنيسة أرثوذكسية؛ لأنه كان أرثوذكسياً متشدداً, وفي المجمع الرابع الذي عقد في خلقيدونية سنه 451م, والذي دانوا فيه هرطقتي أوطيخا ونسطوريوس، وأبطلوا مجمع افسس اللصوص, وفي عام 553م عقد مجمع مسكوني خامس في القسطنطينية، وحاول تفسير كيفية اتحاد طبيعتي السيد المسيح عليه السلام, في تكوين شخص واحد, فانشغل الأباطرة في الخلافات العقائدية فترة وفيرة من الزمن (الاب متى، بدون تاريخ: ص743-744).

في حين أمتاز القرنان السابع والثامن الميلاديين بوجود خلافات عقدية بين معارض ومؤيد لعبادة الأيقونات، ففي عصر ليو الثالث الأيسوري (717-802م) أصدر مرسوماً ينص على منع عبادة الصور والتماثيل وتدميرها، وقد يكون الدافع من ذلك لاهوتياً, لكن الحركة سرعان ما اكتسبت أساساً سياسياً قامت عليه، كهجوم موجه للكنيسة عامة وللأديرة خاصة, ومن النتائج السلبية لهذه الحركة أن الرهبان كانوا من مؤيدين عبادة الصور, بالرغم من نجاح الحركة في أسيا الصغرى، وبين الجند الذين كانوا أغلبيتهم من العنصر الأسيوي، إلا أنها لقيت مقاومة شديدة من الأباطرة البيزنطيين, وقد بلغ شدت كراهية الناس للأيسوريين في إيطاليا أن للومبارد لم يجدوا أدنى مقاومة

حين اجتاحوا رافنا، وأدت الحركة إلى انشقاق مع البابوية كان لها نتائج بعيدة المدى (رنسيمان، 1997: ص42-43).

وقد كانت أحداث قطيعة فوتيوس التي حدثت في القرن التاسع الميلادي في مجملها تدور حول الجانب الديني، ولكن إذا تمعنا النظر قليلاً لوجدنا أنها كان لها أثر سياسي وقيامه بما لم يقم به غيره، فقيام فوتيوس بنشر المسيحية الأرثوذكسية بين الشعوب السلافية في كل من تراقيا ومقدونيا وبقية أقاليم اليونان, أو بين الكيانات السياسية الغير خاضعة للحكم البيزنطي كدولة بلغارية ودولة الصرب ومملكة مرافيا في أواسط أوروبا؛ يدل على أنه نجح في مد نفوذ الإمبراطورية سياسياً (Charles, 1957: p. 209).

وبالرغم من المحاولات التي قامت بها كنيسة روما للتفوق على باقي الكنائس المسيحية بعد خلو الجو لها في استقرار الأباطرة في القسطنطينية, حيث بدأت البابوية في زعامة الغرب دينياً ودنيوياً, محاولين الانفصال والاستقرار عن الكنيسة الشرقية التي كانت ترى أحقية وجودها في القسطنطينية عاصمة الأباطرة في الجزء الشرقي كراعية لبقية الكنائس المسيحية، فقد رأت كنيسة القسطنطينية أن توجهات كنيسة روما اللاتينية نزعة انفصالية واضحة، فكان ذلك البداية الحقيقية للخلاف والشقاق المذهبي بين الكنيستين الشرقية والغربية استمر طيلة العصور الوسطي، والذي أنتهى بتتويج البابا لشارلمان العظيم سنه 800م إمبراطوراً، وأصبح داخل الإمبراطورية إمبراطوران: شرقي وغربي، ففي الشرق الإمبراطورة أيرين، وفي الغرب الإمبراطور شارلمان.

وقد أرادت البابوية من ذلك إرجاع السلطة التي كان يتمتع بها البابا في تعيين وعزل الأباطرة، كما كان لها غرض في تعيين شارلمان وهو قطع الرابط الذي يربطها بالإمبراطورية البيزنطية, أما عن الوضع في الإمبراطورية البيزنطية فقد وقع مثل الصاعقة عليها خاصة إن الأباطرة البيزنطيين كانوا يعتبرون أنفسهم ورثة الأباطرة الرومان، وكانت لهم سلطة ولو كانت اسمية على غرب الإمبراطورية، وبذلك فقد الأباطرة البيزنطيين السلطة على الغرب، بل انقسمت الإمبراطورية إلى شطرين؛ شرقي تحت حكم الإمبراطورة أيرين، وغربي تحت حكم الإمبراطور شارلمان (ديورانت، 1988: ج3، ص353).

وفي عام 1024م تأزم الوضع مجدداً عندما اقترح بطريرك القسطنطينية استمرار العلاقات مع روما، مقابل اعتراف روما بزعامة القسطنطينية لجميع كنائس الشرق لكن روما رفضت ذلك (العريني، 1960: ج3، ص72-73).

لقد كان استيلاء النورمان على جنوب إيطاليا بقيادة روبرت جيسكارد (1015-1085م) الذي حصل على اعتراف وتأييد من بابا روما, آثاره السلبية فقد أثار ذلك مشكلة جديدة حيث تحالف الإمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع مونو ماكوس،* مع البابوية (يوسف، 1984: ص19) ولكي يحقق الإمبراطور البيزنطي هذا التحالف عيَّن أرجيروس حاكماً على ممتلكاته في إيطاليا لمنع تقدم النورمان, وفي نفس الوقت ظهر منافس جديد على الساحة وهو الملك الألماني أوتو الأول (912-973م) الذي توّجه البابا يوحنا الثاني عشر (955-964م) إمبراطوراً عام 962م (Ambroise, 1941: pp. 82-83) حيث عمل جاهداً للسيطرة على ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية في إيطاليا، بالرغم من المفاوضات التي قام بها الإمبراطور البيزنطي نقفور فوكاس (963-969م) من أجل التحالف مع الألمان، إلا أنها باءت بالفشل، لكن بتولي الإمبراطور يوحنا تزيميسكيس (969-976م) سرعان ما أصبحت العلاقات البيزنطية الألمانية طيبة (بن ناصر، الحيدري، 2002: ص148-149).

شهد القرن العاشر الميلادي حدوث صراع بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما، مما أحدث قطيعة دينية عام 1054م, وكان السبب وراء ذلك هو التنافس بين الكنيستين على فرض الهيمنة على كنائس جنوب إيطاليا التي كانت خاضعة الإمبراطورية البيزنطية (بن ناصر، الحيدري، 2002: ص149).

لقد ظهر الخطر السلجوقي عندما قامت جيوش الإمبراطورية البيزنطية بالإغارة على منبج، وقتل حاميتها، واستباحت أهلها, فوجه السلاجقة حملة إلى الإمبراطورية البيزنطية بقيادة ألب أرسلان* عام 1071م في موقعه عرفت في التاريخ بمعركة (مانزكرت) التي انتصر فيها الأتراك

---

* قسطنطين مونو ماكوس: هو إمبراطور بيزنطي وصل للحكم سنة 1042-1055م, عند زواجه من زوي سليلة البيت المقدوني. انظر: جوزيف نسيم يوسف، تاريخ الدولة البيزنطية, مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر, الإسكندرية, 1984م، ص19.

* ألب أرسلان قائد ماهر حكيما وسياسياً متمكناً ووزير لنظام الملك في الجيش السلجوقي, أراد أن يمتد نشاط السلاجقة ضد النفوذ الفاطمي في بلاد الشام وضد حلفائهم البيزنطيين في أسيا الصغرى, وتوحيد العالم العربي الإسلامي تحت راية الخلافة العباسية. انظر: خليفة بن ناصر وصلاح الحيدري، المرجع السابق، ص157.

السلاجقة على القوات البيزنطية، فقد كان لهذه المعركة أثر كبير على الإمبراطورية البيزنطية خاصةً وعلى أوروبا بشكل عام، حيث تحولت الإمبراطورية البيزنطية بشكل تدريجي إلى تركية؛ لأنها أنهت الوجود البيزنطي في أجزاء من أسيا الصغرى، وأحلت محلها نفوذ الأتراك السلاجقة ثم العثمانيين فيما بعد, ونتيجة لهذه الهزيمة قام الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومينيين (1081–1118م) بالاستنجاد بالغرب الأوربي لإنقاض الشرق من خطر السلاجقة الذي لم يقتصر التهديد على القسطنطينية فقط بل على العالم الأوربي كاملاً، لذلك طلب النجدة من البابا أوربان الثاني (1088–1099م) (Barker, 1977: pp. 20-22) أحد النبلاء الفرنسيين لإمداده بالجيوش المرتزقة لاستعادة الممتلكات البيزنطية من أيدي السلاجقة، فوجد البابا فرصة لتحقيق مطامعه في توحيد الكنيسة الشرقية تحت سلطته (Regine, 1963: pp. 57-62) فعقد مجمع في كليرمونت في فرنسا 1095م، ووجه خطاباً في غاية الحماسة للعالم الأوربي لأنقاض الأراضي المقدسة من قبضة السلاجقة، إلا أن الخافي كان أعظم حيث كان الهدف الظاهر والسبب الحقيقي وراء هذا المجمع هو أنقاض الأراضي المقدسة والحجيج والسيطرة على الإمبراطورية البيزنطية وتوحيد كنيستها, وهذا ما تم فعلاً في عام 1204م، حيث باركها البابا أنوسنت الثالث (1198–1216م) عندما عرجت الجيوش الصليبية الموجهة إلى مصر نحو القسطنطينية واستولت على كنيستها، وتعيين أسقف كاثوليكي عليها, وتحويلها لإمارة لاتينية تحت حكم الأمير بلدوين التاسع (1204–1205م) الذي قسم الإمبراطورية إلى دوقيات, وممتلكات صغيرة, بين القادة الصليبيين (بيشوب، 1968: ص103–105).

والجدير بالذكر أن بعض المؤرخين ومن بينهم نورمان بينز يجعل نهاية الإمبراطورية البيزنطية بسقوط القسطنطينية على يد اللاتين الصليبيين 1204م (أومان، 1892: ص218–220) وحجتهم على ذلك أن الإمبراطورية البيزنطية برغم استرجاعها واستمرارها حتى أواسط القرن الخامس عشر الميلادي, وسقوطها بأيدي الأتراك العثمانيين عام 1453م، إلا أن الأحداث والمؤثرات الجديدة من الغرب الأوروبي جدت على العالم البيزنطي وتركت أثاراً واضحاً بحيث أن عاصمة قسطنطين لم تعد كما هي من قبل بقوتها وعظمتها (يوسف، 1984: ص217).

لقد أسس البيزنطيون الذين هربوا من جحافل الصليبيين الذين الحقوا بالقسطنطينية فسادا، فاتجهوا إلى نيقية وطربيزون وأبيروس وقيام إدارات خاصة بهم مستقلة في المنفى، إلى أن قام

الإمبراطور ثيودور الأول لاسكاريس (1204–1222م) من توحيدها تحت اسم الإمبراطورية النيقية البيزنطية في أسيا الصغرى وأعلن نفسه أول إمبراطور لهذه الإمبراطورية عام 1208م (Setton, 1958: pp. 183-185) وتمكن من استعادة الأراضي التي تم اغتصابها من قبل اللاتين ومن ثم تولي العرش الإمبراطور يوحنا الثالث فاتا تزس (1222–1253م) وتمكن من السيطرة على تراقيا وتحريرها من أيدي الصليبيين، وقام بحصار القسطنطينية، لكنه فشل في اقتحامها, في ذلك الوقت كانت هناك إمارة بيزنطية قائمة في أبيروس تحت قيادة ميخائيل انجلوس (1204–1215م) بذلك نجد أن هناك إمارتان بيزنطيتان الأولى في نيقية، والثانية في أبيروس تكافحان من أجل استعادة القسطنطينية وقد توحدت القوات تحت قيادة نيقية، وما إن تولى العرش ميخائيل باليولوج عام (1259–1261م) قام بوضع خطط للسيطرة على القسطنطينية، وإعادة توحيد الإمبراطورية حيث تمكن من ذلك عام 1261م، فدخل ميخائيل باليولوج القسطنطينية في حين فر الحاكم الصليبي في ذلك الوقت بلدوين الثاني والبطريرك الكاثوليكي وتم لميخائيل التتويج في كنيسة أيا صوفيا كأول إمبراطور بيزنطي بعد استعادة القسطنطينية (Vasiliev, 1961: p. 9).

لقد تمكن الإمبراطور البيزنطي ميخائيل من عقد تحالف مع البابا جريجوري العاشر 1274م باعترافه بتبعية كنيسة القسطنطينية للبابوية في مقابل ذلك حصوله على اعتراف من البابا بأحقيته في حكم القسطنطينية، ويكون له حرية التصرف في الشرق ولو استلزم ذلك القضاء على الإمارة اللاتينية, إلا أن هذا التحالف لم يرضِي البيزنطيون بأن يكونوا تابعين لروما وطالبوا باستقلال كنيستهم، مما أدى ذلك لحدوث انقسام وانشقاقات طائفية انعكست على وحدت الإمبراطورية (بن ناصر، الحيدري، 2002: ص207–212).

لم يكن الخطر موجّه من الداخل فقط فقد عاد العثمانيون مرة أخرى وقاموا بالهجوم على الإمبراطورية البيزنطية، فاستولوا على مدينة أدرنة عام 1361م، في عهد السلطان مراد الأول (1360–1389م) الذي جعلها عاصمة لدولته، كما قام العثمانيون بشن هجمات تمكنوا فيها من السيطرة على أجزاء كبيرة من الإمبراطورية, حيث وصلوا الدانوب وانتصروا على الجيوش البلغارية والصربية التي حاولت إيقاف تقدمهم, فسيطروا على مقدونيا وساحل دالماشيا وازداد تقدمهم في شرق أوروبا إلى عهد السلطان بايزيد بن السلطان مراد (1389–1402م)، (Shaw, 1977: p. 14).

وصل المغول بقيادة تيمور لنك إلى داخل أراضي أسيا الصغرى وشنوا هجوماً على العثمانيين وألحقوا بهم هزيمة، ووقع بايزيد نفسه في أسر تيمور لنك حيث توفي بعد أقل من عام, وعندما تولي السلطان محمد الثاني العرش العثماني (1451-1481م) أراد إخضاع القسطنطينية التي كان يحكمها الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الحادي عشر (1449-1453م) (Langer, Blake, 1932: p. 489) في ذلك الوقت, فقد أبدى ولائه للسلطان العثماني مراد الثاني، ولكن الأخير توفي فخلفه ابنه محمد الثاني وتزايد العداء بين الطرفين، فاستنجد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الحادي عشر بالغرب الأوربي وعلى رأسهم البابا لنجدته، في حين قام السلطان محمد الثاني بإنشاء قلعة عند البوسفور بالقرب من القسطنطينية أطلق عليها روم أيلي حصار, وفي عام 1453م أصدر السلطان محمد الثاني أوامره بمحاصرة القسطنطينية ونتيجة شدت الحصار وأمام المدافع العثمانية سقطت الإمبراطورية البيزنطية (أومان، 1892: ص218-227).

وبعد ما يزيد عن عشرة قرون من الزمن, عاشتها الإمبراطورية البيزنطية لتؤدي دورها على مسرح الأحداث سقطت القسطنطينية في قبضة الأتراك العثمانيين وبسقوطها إنهار أخر مؤسسة من مؤسسات العصور الوسطى، ويبدأ عصر جديد في تاريخ الإنسانية بأوضاع ومفاهيم جديدة (يوسف، 1984: ص291).

النتائج

1. الجدير بلفت النظر أن الإمبراطور قسطنطين لم يعتبر نفسه إلهاً, حسب عادة الأباطرة الرومان, بل اعتبر نفسه نائباً عن الله في حكم الإمبراطورية البيزنطية.
2. لقد كان اعتراف الإمبراطور قسطنطين بالمسيحية ما هو إلا ذكاء منه لمعرفته التامة، ولبعد نظره بأن المسيحية سوف تحقق الوحدة داخل الإمبراطورية، لأنها تحمل روح المحبة والوحدة التي تدعو إليها الكنيسة، فقد عمل قسطنطين على استخدام المسيحية وتسييرها لخدمة الإمبراطورية.
3. لقد كانت الإمبراطورية البيزنطية في القرن الخامس الميلادي تعد الزندقة – نبذ أي قانون يصدر على مجالس العامة للكنيسة – جريمة ضد الدولة بالرغم من أن هذه الوظيفة كانت

من اختصاص الكنيسة إلا أن سيطرة الدولة على الكنيسة واعتبارها روحاً وجسداً أعطى الأباطرة حق اتخاذ قرارات الكنيسة.

4. لم يكن انقسام الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية، ومحاولة فرض كل منها السلطة، هو العامل الوحيد فقد حدث انقسام وتنافس داخل الكنائس الشرقية نفسها وهذا ما حدث بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة القسطنطينية عندما قرر الإباء مساواة كنيسة القسطنطينية بكنيسة روما وكذلك التنافس بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة أنطاكية.

5. نلتمس من قطيعة فوتيوس أن الإمبراطور تدخل عندما قام ملك البلغار بطلب الاستقلال لكنيسة بلغارية ببطريرك بلغاري، ورفض الإمبراطورية البيزنطية لهذا الطلب وتحايل البابوية بقبول هذا الطلب إلا أنها وقعت تحت الوصاية البيزنطية عندما أعلن الإمبراطور باسيل ذلك وهذا يدل على مكانة الإمبراطور واتخاذ القرارات داخل المجمع.

6. لقد تعرضت الإمبراطورية البيزنطية, لكثير من الإخطار كادت في بعض الأحيان أن تقضي عليها, وبرغم انتصار السلاجقة الأتراك على البيزنطيين في معركة مانزكرت, كان له أثر كبير حيث وقع هذا الخبر على البيزنطيين كالصاعقة, إلا أنهم لم يتمكنوا من السيطرة على الإمبراطورية البيزنطية, ولعل السبب وراء ذلك وفاة قائدهم ألب أرسلان, وكذلك الخلافات التي حدثت بين السلاجقة أنفسهم, وظهور اللاتين على الساحة, وقيامهم بالحملات الصليبية – حيث أنها سميت بذلك لأنهم اتخذوا الصليب شعار لهم – لقد سبق حملات السلاجقة بغية السيطرة على القسطنطينية حملات المسلمين في ذلك في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك (674-717م) حيث قامت الجيوش العربية بقيادة مسلمة بن عبد الملك بحصار القسطنطينية عام 717م، وبعد فترة طويلة من الحصار ونتيجة لتحالف الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث الأيسوري مع زعيم البلغار ترفل وكذلك الشتاء القارس وشح الغذاء كل تلك الأسباب جعلت القوات الإسلامية ترفع الحصار وتعود أدراجها, بالإضافة لخطر البلغار وكذلك الروس البشناق, إلا أنها سقطت في أيدي من استنجدت بهم, وهم الصليبيون ومن بعدهم العثمانيين.

7. حاول الإباء الغربيين التدخل في شؤون الكنيسة الأرثوذكسية مراراً وتكراراً، ولكن حرص الأباطرة وفرض السلطة الدينية والدنيوية حال دون تحقيق ذلك الغرض, إلا أن استنجاد الكسيوس كومنيين بالبابوية شجعهم لتحقيق ذلك الغرض وتم لهم ذلك.
8. حدوث الصراع في القرن التاسع الميلادي داخل الكنيسة والقصر الإمبراطوري في الوقت الذي اعتقد أنصار عبادة الصور أن زمن الرافضين لعبادة الصور قد انتهى إلا أنهم سرعان ما فوجئوا بحركة دينية شعبية هي الحركة المعروفة بالبوليسية – نسبة إلى بولس – التي ازداد نموها في آسيا الصغرى، حيث خطرها لم يقتصر على الكنيسة فقط, بل تجوز ذلك للسلطة, كذلك حدوث صراع ديني جديد بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما, وهو الذي أدى إلى ما يعرف بقطيعة فوتيوس، فقد اكتسب هذا الصراع طابعاً عقائدياً وسياسياً وثقافياً واقتصادياً.
9. إن الصراع بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية هو صراع مذهبي بينهما، وأنه مستمر إلى يومنا هذا بين الكاثوليكية في الغرب والأرثوذكسية في الشرق.
10. أن الصراع القائم بين الكنيسة الشرقية المتمثلة في البطريرك البيزنطي والبابوية في روما ساهمت في ضعف الإمبراطورية وتجرء الدول المجاورة عليها.
11. أدى سقوط القسطنطينية بأيدي الأتراك العثمانيين 1453م, إلى زوال إمبراطورية أوربية مسيحية, وإحلال محلها إمبراطورية أسيوية إسلامية.

الخاتمة

وخلاصة القول، لقد لعب الأباطرة في الكنيسة دوراً مهماً حيث قاموا بعقد المجامع والدعوة لها, وفي بعض الأحيان قاموا بإصدار قرارات, ونصب الأباطرة أنفسهم حُماةً للدِّين والكنيسة، بحيث أصبح حكمهم حكم استبدادي قيصري بابوي في نفس الوقت, وكذلك قيامهم بنشر الديانة المسيحية في المدن التي تتم السيطرة عليها, في حين واجهت الإمبراطورية البيزنطية الكثير من الأخطار ولاسيما الأخطار خارجية التي كادت أن تنهي حكمها, كذلك التنافس الذي حدث بين الكنيستين الشرقية (القسطنطينية الأرثوذكسية) والغربية (روما الكاثوليكية) حول أفضلية الكنائس وادعاء

باباوات روما السلطة بأنهم خلفاء القديس بطرس وبولس, وطمع الغرب بالسيادة على جميع الكنائس، فقد ظهر ذلك بوضوح عندما غضب البابا من قرارات مجمع خلقيدونية, وكذلك ظهور النزاعات والخلافات الدينية كان لها أثر كبير استمر طيلة العصور الوسطى, كل تلك الأحدث السابقة وانشغال الأباطرة بحلها عجلت بسقوط الإمبراطورية البيزنطية.

- التوصيات:

من خلال دراستنا لموضوع (الكنيسة الأرثوذكسية ودورها في الحياة الدينية والحياة السياسية شرق أوروبا العصور الوسطى) اتضح أن الموضوع يحتاج المزيد من البحث والتدقيق للوصول إلى أدق المعلومات والمزيد من الوقت والجهد والاهتمام بمثل هذه الموضوعات الجديدة ومحاولة البحث عنها بصورة أكثر في جميع الجوانب الاقتصادية والاجتماعية .. الخ.

المراجع

1. الأب متى المسكين. (بدون تاريخ). حقبة مضيئة في تاريخ عصر القديس اثناسيوس الرسول البابا العشرون 296–373م سيرته ودفاعه عن الإيمان ضد الأريوسيين لاهوته، مطبعة دير القديس أنبا مقار، وادي نطرون.
2. أومان. (1892). الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى طيب، دار الفكر العربي: القاهرة، مصر.
3. بن ناصر، خليفة أبوبكر. والحيدرى، صلاح هادى. (2002). الموجز في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها، منشورات جامعة درنة: درنة ليبيا.
4. بيشوب، موريس. (1968). تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة علي السيد علي، ط1، المجلس الأعلى للثقافة: القاهرة، مصر.
5. درويش، عادل. (2012). سلسلة رسائل علمية الكنيسة أسرارها وطقوسها، ط1، دار بلال بن رباح: القاهرة، مصر.
6. ديورانت، ول وايريل. (1988). قصة الحضارة (عصر الأيمان) ترجمة محمد بدران، ج3، مجلد 14، بيروت، تونس.
7. رنسيمان، ستيفن. (1997). الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة، مصر.
8. زيتون، عادل. (1980). العلاقات السياسية والكنيسة بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، ط1، دار دمشق، سوريا.

9. عاشور، سعيد عبد الفتاح. (2009). تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية: بيروت، لبنان.

10. عبيد، إسحاق تاوضروس. (1970). روما وبيزنطة من قطيعة فوتيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين 869-1204م، دار المعارف: القاهرة، مصر.

11. العريني، السيد الباز. (1965). الدولة البيزنطية 323-1081م، دار النهضة العربية: القاهرة، مصر.

12. العريني، السيد الباز. (1960). الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ج1، مطبعة التأليف والترجمة والنشر: القاهرة، مصر.

13. لوريمر، جون. (بدون تاريخ). تاريخ الكنيسة، ط1، ج3، دار الثقافة: القاهرة، مصر.

14. نجيب، جاد الله. (2012). تاريخ الكنيسة الغائب صفحات من تاريخ الكنيسة في القرنين الرابع والخامس ميلادي، دار الثقافة العربية: القاهرة، مصر.

15. يوسف، جوزيف نسيم. (1984). تاريخ الدولة البيزنطية 284-1453م، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر: الإسكندرية، مصر.

16. Ambroise. (1941). *The Crusade of Richard Lion- Heart*. Translated by Hubert, M. J. New York: n.p.
17. Barker, E. (1977). *The Crusades*. 2nd ed. n.p. Ayer Co publisher.
18. Charanis, P. (1953). "Economic Factors in the decline of the Byzantine Empire". *Journal of Economic History*, Vol. 13.
19. Charles, D. (1957). *Byzantium Greatness and Decline*. New Jersey: New Brunswick.
20. Frucht, R. (2005). *Eastern Europe: an introduction to the people, lands, and culture*. Vol. 1. Santa Barbara: ABC-CLIO.
21. Langer, W. L., & Blake, R. P. (1932). "The rise of the Ottoman Turks and its historical background", *American Historical Review 37*. n.p.
22. Normaan H. Aynes & H. St. L. B. (1984). Byzantium an introduction to East Roman Clvilization. Oxford . at Clarendon. Press.
23. Regine, P. (1963). *The Crusaders*. London: n.p.
24. Setton, K. (1958). *A History of the Crusades*. Vol. II. Pennsylvania: University press.
25. Shaw, S. (1977). *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*. Vol. I. Cambridge: n.p.

26. Vasiliev, A. (1952). *A History of the Byzantine Empire 324-1453.* I & II vols. Wisconsin: n.p.

27. Vasiliev, A. (1936). "The Foundation of the Empire of Trebizond (1204-1222)". *Speculum A journal of Mediaeval Studies.* No. 1. Vol. XI.

28. Vryonis, S. J. (1967). *Byzantium and Europe*. London: Harcourt, Brace and Co.

29. Warren, T. (1997). *A History of the Byzantine State and Society*. Stanford & California: Stanford University press.